رأي القدس

اليمن وازماته المتفاقمة

■ يشهد اليمن حراكا سياسيا غير مسبوق مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية بعد اربعة اشهر، ينعكس بشكل واضح في الصحافة والمقايل والمنتديات، ولكنه حراك ينطوي على الكثير من الجوانب السلبية، خاصة تبادل الاتهامات بين الاحزاب المشاركة في العملية السياسية.

فحتى هذه اللحظة، لم تقدم المعارضة اليمنية التي تضم حزب «الاصلاح» برئاسة الشيخ عبد الله الاحمر، والحزب «الاشتراكي»، وبعض الاحزاب القومية والناصرية اسماء مرشحيها الذين من المفترض ان ينافسوا مرشح الحزب الحاكم، سواء كان الرئيس علي عبد الله صالح نفسه او شخصا آخر يخلفه.

ويتسم موقف الرئيس اليمني بالكثير من الغموض، فبعد ان اعلن قبل عام عدم نيته ترشيح نفسه لافساح المجال لدماء جديدة تتحمل المسؤولية على حد قوله، لم يصدر عنه ما يوحي بانه قرر تغيير موقفه هذا، رغم اصرار حزب المؤتمر الذي يتزعمه على انه مرشحه الوحيد.

وادى هذا التنافس المحموم بين المعارضة والسلطة، وبين احزاب المعارضة نفسها، خاصة الحزبين الكبيرين «الاصلاح» و«الاشتراكي»، الى حملات تصعيد اعلامية شرسة، خرجت في الكثير من الاحيان عن الخطوط الحمراء، ودفع ثمنها العديد من الصحافيين، اعتقالا وتعذيبا وضربا.

فيوم امس الاول تعرض حافظ البكاري الامين العام لنقابة الصحافيين اليمنيين، وقبله جمال عامر رئيس تحرير صحيفة «الوسط» الى مضايقات مهينة في مطار صنعاء الدولي، من بينها التوقيف والاستجواب وتفتيش الامتعة. كما تعرض صحافيون آخرون للخطف والضرب من قبل جهات يمنية، يعتقد انها محسوبة على الحزب الحاكم.

ان تراجع الحريات الديمقراطية في اليمن انتكاسة كبيرة، ربما تؤدي الى عواقب سلبية على البلد وسلامها الداخلي ووحدتها الوطنية.

فقد تباهى اليمنيون لسنوات عديدة بتحقيق اهم انجازين في السنوات العشرين الماضية تقريبا، الاول هو انجاز الوحدة بين الشطرين، والثاني تحقيق الديمقراطية واطلاق الحريات. ويبدو ان هذين الانجازين معرضان للخطر هذه الايام.

فالوحدة بين الشطرين باتت مهددة بسبب تصاعد بعض النعرات الانفصالية والمناطقية، خاصة من طرف بعض ابناء الجنوب الذين باتوا يتحدثون علانية عن عدم رضاهم عن الوحدة، والسياسات التمييزية ضدهم في وظائف الدولة العليا، ومشاريع التنمية. وينشط هؤلاء بشكل خاص في اوروبا وبعض دول الخليج، ويصدرون منشورات وبيانات تحريضية ضد السلطة المركزية في صنعاء.

اما الديمقراطية فقد تراجعت كثيرا ولم تعد بالصورة المشرفة التي كانت عليها في السنوات الاولى للوحدة. فقد بدأ صدر السلطات يضيق بالصحافة والصحافيين، وهامش الحرية يتراجع بشكل ملموس، وتتراجع معه اعداد الصحف والمطبوعات، فبينما بلغ عدد الصحف اليومية والاسبوعية والمطبوعات الاخرى الشهرية والدورية اكثر من مئة وستين مطبوعة قبل عشر سنوات، تراجع هذا الرقم الى بضع عشرات فقط.

ولعل «ام المشاكل» التي تهدد اليمن حقيقة هي مشكلة الفساد وانتشاره، وتورط ابناء المسؤولين الكبار في الدولة والمعارضة في الاستحواذ على الصفقات والعمولات وتكديس مئات الملايين من الدولارات في حساباتهم وتكوينهم طبقة مترفة، بينما الغالبية الساحقة من ابناء اليمن تعيش باقل من دولارين في اليوم.

قضايا عديدة في اليمن بحاجة الى حسم وبسرعة قبل ان تستفحل هذه الازمات وتصل الى مرحلة تستعصي على الاصلاح. وهذه مسؤولية الرئيس اليمني علي عبدالله صالح بالدرجة الاولى، والا فان انجاز الوحدة الذي جرى الاحتفال بذكراه قبل ايام مهدد بالتبخر.

استقبال البيت الأبيض لجمال مبارك اعتراف به وبدوره الراهن والمستقبلي

الأمريكان يفضلون نار «التوريث» على «جنة» الاسلاميين!

محمد عبدالحكم دياب *

■ أثارت زيارة جمال مبارك زوابع ما كان من الواجب أن تثيرها، خاصة من هؤلاء الذين تصوروا وجود خلاف بين «عائلة مبارك» والإدارة الأمريكية، ولو تأمل هؤلاء خلافات هذه الإدارة مع حكومة من صنعها وتخضع لحمايتها وتتولى الدفاع عنها، وتصفها بما ليس فيها، كـ«أول حكومة ديمقراطية»، في العراق، وأول حكومة وحدة وطنية تجمع شمل العراقيين!!، وهي ليس لها من أمر إلا تنفيذ ما يملى عليها من مهام لتفتيت الدولة العراقية، وإعادة صياغة المكونات السياسية والاجتماعية فيها على قواعد التقسيم الطائفي والعرقي والمناطقي، لو تأملوا لعرفوا ان الخلاف الذي ينشأ عادة بين السادة والخدم والعبيد لا يعدو أن يكون خلافا على هذا الامتياز أو ذاك الذي يطلبه الخادم أو العبد من سيده، ويمنح له مقابل تجديد الاقرار بالولاء والطاعة.. فهل هناك من يتصور أن «عائلة مبارك» من الممكن أن تعيش يوما واحدا في الحكم بعيدا عن مظلة الإدارة الأمريكية، ودون أن تنفذ ما عليها من التزامات.. وأهمها «صهينة» النظام العربي، وتقديم ما يلزم للمجهود السياسي والاقتصادي والعسكري الصهيو أنكلو أمريكي.

علينا أن نعيد النظر في موقفنا من هذه الزيارة. وطبيعتها السرية، قبل أن يتم الكشف عنها، لا تختلف عن طبائع الزيارات والاجتماعات التي تكون على نفس الشاكلة، فكلها تم في حالات التواطؤ والغزو والحروب أو المصائب الكبرى. ولنقرأ بعض سطور التاريخ، فسوف نجد أن اتفاق سايكس بيكو سنة 1916، الذي على أساسه تم تقسيم وبلقنة الوطن العربي، كان سريا، ولو لم تقم الثورة الروسية سنة 1917 ما كان قد تم فضح هذا الاتفاق، وربما ظل حبيس الأضابير والأقبية حتى هذه اللحظة. وكان اجتماع «سيفر» 1956 بين إيدن وجي موليه وبن غوريون من أجل التواطؤ على غزو مصر، وهكذا كان لقاء بوش وبلير السري سنة 2002، لاتخاذ قرار غزو العراق. وجمال مبارك نفسه سبق له الاجتماع سرا بالرئيس الأمريكي، بدايات عام 2003 لينقل إليه، نيابة عن والده، ما عرف بـ«المعلومات السرية الهامة»، المنشورة في كتاب «خطة الغزو» للكاتب الأمريكي بوب وود وارد، عن «أسلحة الدمار الشامل» العراقية المحمولة على مركبات متحركة، مع دعوة بالاسراع بشن الغزو. وبالقطع لم تكن هذه المعلومات وحدها مادة الاجتماع، بل رافقها نقل استعداد حسني مبارك لتقديم التسهيلات اللازمة لإنجاح الغزو.

والإدارة الأمريكية لا تستطيع التخلي عن «عائلة مبارك»، على الأقل في المدى المنظور وأسباب ذلك كثيرة.. منها تناقض جدول الأعمال، أو ما يعرف بـ«الأجندة الأمريكية»، مع متطلبات التغيير الوطني المصري، فالمصريون يسعون لحكم ديمقراطي حقيقي، تتوفر فيه المشاركة الفعلية في القرار السياسي، حيث يرونه طريقهم للتخلص من ثالوث الاستبداد والفساد والتبعية، وسبيلهم لعودة مصر لتلعب دورها الفاعل والمحوري في المنطقة.. تحمي به أمنها الوطني من المخاطر المحيطة، في فلسطين والسودان وغيرهما، وعن طريق هذا الحكم الديمقراطي يحاسبون اللصوص وناهبي ثروات البلاد، ومن أذلوا أعناق العباد. ويسائلون باعة القطاع العام، لمن بيع وفي أي مصرف وجهت عوائده.. ويحررون الاقتصاد من قبضة المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي، اللذين قضيا على مقومات التنمية، وحولا مصر إلى ضيعة صهيوغربية.. تئن من الديون، وتعال من الغير، بعد أن وقعت في أسر طبقة من الأفاقين واللصوص ووكلاء الاحتكارات المتسترين برداء الاستثمار.

المطالب الوطنية تقف ضد الإفقار المنظم، والسياسة الأمريكية والصهيونية على النقيض من ذلك. فالإفقار المنظم سبيلها لإضعاف مصر، وضعفها يبقيها تابعة لهذه السياسة، والمنطقة، حسب المنطق الصهيوغربي، لا تتسع للقوتين العربية والصهيونية معا. فكل منهما نقيض الآخر، ودور الغرب هو فرض الانسحاب على القوة العربية لتخلي الطريق أمام القوة الأخرى لتستقر وتتمدد. واستمرار الهيمنة الأمريكية على القرار السياسي المصري مهمة حيوية في الأجندة الأمريكية، ومصدر القلق الصهيوغربي نشأ من توجهات وتداعيات الحراك السياسي والاجتماعي، الدائر في الشارع المصري، لأن نصيب «الأجندة الأمريكية» فيه يكاد يكون معدوما، والبديل الملتزم بهذه «الأجندة» ليس بالقوة المطلوبة بعد. ولا يستطيع المغامرة في ظرفه الراهن، وهذا وضع الإدارة الأمريكية بين نار القبول بـ«عائلة مبارك» بكل ما يحيطها من فساد، وجنة التسليم بالتغيير الذي لا يضمن لها نصيبا خارج قواعد الاعتماد المتبادل والعلاقات المتكافئة. ومن أجل ذلك تلعب بورقة الوقت، الذي من المتوقع ألا يكون في صالحها. وأملها أن يتيح أمامها فرصة تصنيع البديل.. في ظل فراغ سلطة ناشئ عن موت حكم مبارك وتعفنه. وأي بديل لا يكون جزءا من المجهود السياسي والاقتصادي والعسكري الأمريكي والصهيوني لن يحصل على قبول الغرب، بشكل عام والدولة الصهيونية والإدارة الأمريكية بشكل خاص.

والإدارة الأمريكية وهي تفكر في معالجة فراغ السلطة، تجد أن الخيارات أمامها قد ضاقت. ولهذا أعطي «التوريث» أهمية خاصة في التعاطي مع هذا الفراغ، ويكتسي «النجل»، أهميته كوارث باعتباره رأس الحربة فيما يعرف بـ«الليبرالية الجديدة».. الامتداد المصري العربي للمسيحية الصهيونية، الحاكمة في كل من واشنطن ولندن والمتحالفة مع الأصل الصهيوني في تل أبيب. وهو ما قد يجعل «النجل» أكثر فائدة، لها من والده. وهو لا يقارن بسعد الدين إبراهيم ولا أيمن نور. فالرهان على الأول سقط تقريبا، لأنه لا يملك قوة حقيقية على الأرض.. فما يملكه هو رأيه وقلمه ومؤسسته (مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية)، وهذا يذكرني بحديث جرى مع ستالين عن تأثير الفاتيكان، ساعتها سأل محدثه: كم يملك البابا من دبابات ومدافع وطائرات وغواصات وبوارج. وبالفعل لم يصبح للبابا يوحنا بولص الثاني وزن إلا بعد وقوف المنظومة الغربية، بما لها من إمكانيات اقتصادية واعلامية وعسكرية وراءه. وسعد الدين إبراهيم في ظل ميزان القوى الراهن في الشارع المصري لا يساوي شيئا، أما الثاني وجد أن ليبراليته لا تحميه في بيئة غير وطنية، وقد يكون لزوجته جميلة اسماعيل دور في هذا التطور، ونراه في صور مشاركة أنصاره في المظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات، وفي التنسيق مع «كفاية» وأخواتها.

وجاء انقلاب موازين القوى الداخلية ليوسع دوائر الرفض والمقاومة، وينقل المطالب الوطنية من «الاصلاح» الذي قد يتواءم، بدرجة أو أخرى، مع «الأجندة الأمريكية»، بإبقائها الوضع على ما هو عليه، مع ترميمات وتحسينات في الشكل والمظهر، وتحقيق مكاسب جزئية، قانونية ودستورية، هذا التطور نقل المطالب من «الاصلاح» إلى «التغيير الشامل» للنظام السياسي برمته، وهو ما يفسر إلحاح الإدارة الأمريكية مجددا على تعديلات دستورية، تتيح الفرصة للالتفاف حول هذه المطالب.. وقد حصل البيت الأبيض بالفعل من «الرئيس الموازي» على وعود باجراء تعديلات دستورية خلال العام القادم.

فراغ السلطة فرض على الطرفين، الإدارة الأمريكية و«عائلة مبارك» البحث عن طريق للتعاطي السياسي مع القوى الاسلامية الصاعدة، وخاصة جماعة الإخوان المسلمين، ففي الوقت الذي يضيق فيه حسني مبارك الخناق عليها، باعتبارها جماعة محظورة قانونيا، دون اعتبار لوزنها الشعبي، ويزيد من وتيرة المواجهة والتعبئة لتصفيتها، بالعزل السياسي، عن طريق تغيير دستوري متوقع، يحد من دخول المستقلين إلى مجلس الشعب، أو يمنعهم من الترشيح له أصلا. في هذا الوقت نجد أن الإدارة الأمريكية تبدو راغبة في استغلال شعار الجماعة الجديد، الذي رفعته بعد نجاحها في الانتخابات التشريعية الأخيرة، وهو شعار «المشاركة لا المغالبة»، وبه أعطت الانطباع بأنها مستعدة للمشاركة في الحكم إذا ما لبت الحكومة بعض مطالبها. وفي هذا الصدد وجدت الإدارة الأمريكية نفسها أمام صيغتين.. الأولى الصيغة العراقية، حيث شاركت الجماعة، عن طريق الحزب الاسلامي العراقي، في حكم العراق، بالتعاون مع قوات الغزو والاحتلال. والثانية هي الصيغة الإخوانية في فلسطين، وإدارة حماس المتعثرة للسلطة. فالصيغة الأولى مقبولة ومفضلة أمريكيا وبريطانيا وصهيونيا، والصيغة الثانية مرفوضة منهم جميعا. وهذا وضع الإخوان المسلمون في مصر تحت مطرقة الصيغة العراقية وسندان النموذج الفلسطيني.

والإدارة الأمريكية حريصة ألا تضع كل بيضها في سلة «الرئيس الموازي» وحده، بعد موت حكم أبيه، وتحوله إلى «ملطشة»، زادت من قلق الإدارتين الأمريكية والصهيونية، وكما هو وضع الإخوان أضحى الوضع الأمريكي الصهيوني.. عين مع «التوريث» وعين على الاسلاميين.. وبقى «الرئيس الموازي» الخيار المفضل أمريكيا وصهيونيا. لأن قبول إخوان مصر بالصيغة العراقية نوع من الانتحار، الذي يقضي على كل ما حققته الجماعة من مكاسب. ولم يبق لها إلا أن تتخلص من ترددها.. تتقدم وتبادر مع باقي القوى التي تقر «المغالبة لا المشاركة» لبلورة بديل وطني ديمقراطي، وممارسة أقصى درجات الضغط، حتى تجد «عائلة مبارك» ألا مفر إلا بترك البلاد، كي لا يحدث لها ما حدث للشاه.. الذي تخلت عنه الإدارة الأمريكية عندما انتفض الشعب ومال بالموازين لصالح الثورة، لحظتها لم تجرؤ الإدارة الأمريكية على منحه تأشيرة دخول للعلاج، وكان السرطان قد تمكن منه، وترك مع عائلته هائما بطائرته، لولا «صديقه» أنور السادات الذي آواه في لحظاته الأخيرة!!

ونحن ندعي أن استقبال البيت الأبيض لـ«النجل» هو في حد ذاته اعتراف به وبدوره، الراهن والمستقبلي. وعلينا أن نكون يقظين، بألا نقع في وهم الخلافات الوهمية بين «عائلة مبارك» والإدارة الأمريكية.. وأمام أعيننا نتابع تحريك الأجهزة الأمريكية والصهيونية لفرق الموت في العراق، ثم يأتي صوتها الرسمي يشجب ويدين قتل وترويع المدنيين، والمخطط مستمر لا يتوقف. و«قرص ودن» حسني مبارك لا يعني خلافا حقيقيا، إنما هو من أجل السير على الخطى الموضوعة بالدقة اللازمة، وترويج سلعة أمريكية فاسدة، تعرف زيفا باسم الديمقراطية، والمقايضة بها على الأرض والإنسان والثروة والاستقلال، و«عائلة مبارك»، التي نذرت نفسها لهذه المقايضة، تخاف من خروج الضوابط الموضوعة، أمريكيا وصهيونيا، عن النطاق الموضوع لها منذ الالتزام بالسنة التي استنها السادات وهي «الديمقراطية ذات الأنياب والمخالب» وهي التي أخرجت وحش العنف الديني من قمقمه!! وتأتي ديمقراطية مبارك الهاتكة للأعراض المهيئة المناخ لإشاعة روح الثأر، لتدفع غول العنف الاجتماعي والسياسي ليتسلل خارجا هو الآخر من مخبئه، وفي ترك مصر رهينة هذين المحبسين دمار لها ولمن حولها.. فلا طاقة لأحد عليهما أو على أي منهما، ولهذا فإن التغيير السلمي بأسلوب العصيان المدني هو الحل الذي لا بديل سواه.

* كاتب من مصر يقيم في لندن

«ابو اكرم».. الصمت المعبر

معن بشور

■ المقاوم الجريح في القدس عام 1947، والمناضل المطارد في عمان عام 1957، واللاجئ السياسي المتمرد الى دمشق لعدة شهور، ورجل الاعمال الناجح في الكويت، والبيت المفتوح في لندن، والشخصية المساندة، دون استعراض او منة، لكل جهد وطني وقومي مخلص في فلسطين وديار العروبة، صور متعددة لرجل واحد بقي وعلى مدى اكثر من ستين عاما، ثابتا على مبادئه، وفيا لصداقاته، امينا على تراثه، هو عبد العزيز شاكر الشخاشير (أبو أكرم) رحمه الله.

حاولت مرة ان اتقصى اسباب صلابة هذا الرجل وثباته، وقد تبدلت احواله واوضاعه مرارا، كما تتبدل الكثير من الرجال من حوله مع تبدل الاحوال والاوضاع، لاكتشف ان في اعماق هذا الرجل بالاضافة الى اصوله النابلسية، ونشأته المقدسية، وشغفه الفلسطيني، وتطلعاته القومية، يستقر سلام داخلي عميق، وثقة نادرة بالنفس، وارادة مقرونة بالتصميم، مكنته ان يبدأ، اكثر من مرة في حياته، مسيرته من جديد.

ورغم معرفتي به منذ سنوات طويلة، فلم اكن اعلم مثلا حتى الامس، ان ابا اكرم بدأ حياته مقاوما في القدس وانه قد اصيب في احدى معارك الدفاع عنها عام 1947، وانه كان مشرفا على الاتصال بالضباط البعثيين في الاردن اواسط الخمسينات مما ادى الى صدور حكم بالاعدام عليه بسبب ذلك، الامر الذي حدا بي ان اسأل نفسي عن سر هذا الرجل الذي لم اسمعه مرة يتحدث عن نفسه، بل لا يتحدث الا وقت الضرورة، واذا تحدث فبكلمات موجزة ومختصرة.

كانت النكبة الفلسطينية وتداعياتها تسكن جوارحه، ولم تغادر فلسطين وجدانه رغم هجرته القسرية عنها، بل كان يسعى، بكل ما اوتي من قدرة، على ان يدعم صمود شعبه ونضاله من اجل استعادة حقوقه وارضه، وكانت «مؤسسة التعاون»، ذات الخدمات الاجتماعية والانسانية والثقافية والتربوية الواسعة، وقد اسسها مع نخبة من رجالات فلسطين، هي احد عناوين اهتمامه وعطائه.

ولرهافة حسه القومي، وعمق اصالته العربية، ادخلته نكبة العرب الثانية، النكبة العراقية، في اكتئاب نفسي مديد، وقعود جسدي مرير، لم يخرج منهما الا لملاقاة وجه ربه.

في السنوات الثلاث الماضية لم يكن سهلا ان تستخرج من أبي أكرم كلمة او تعليقا او رأيا، بل كانت له لغته الخاصة في التعبير بايماءات الموافقة والاعتراض تخرج من نظراته، وحركات وجهه، ابتسامات حينا، وتقطيب حواجب حينا آخر، واحيانا بكلمة او كلمتين في حال الاعتراض الشديد على رأي يقال او تحليل يقدم في الجلسة.

كان هذا الصمت يوحي ربما بالألم العميق مما يدور في وطنه وامته، وربما كان فرصة يختلي فيها ابو اكرم بنفسه مستعرضا حياة ممتلئة بالتحديات على انواعها، فيحاكي الذاكرة، ويستعيد صورها، لكن دون شك كان هذا الصمت يعطي الوجه المشرق بالحب والصدق والوفاء مزيدا من المهابة والتألق والتماسك.

ولست أبالغ انني تعرفت الى ابي اكرم في سنوات الانطواء والصمت هذه، اكثر مما عرفته طيلة سنوات طويلة، فقد كان يتابع الاخبار يوميا عبر الصحف وشاشات التلفزة وتنعكس هذه المتابعة قلقا ووجعا على تقاسيم الوجه الناضح بالصلابة والقوة، غير ان الخيبات والآلام ايضا لم تطفئ في بريق عينيه روح التفاؤل والأمل الممزوجة بالاباء والفروسية، وكأن كل لهب جبل النار في نابلس يخرج من ذاك البريق، بل كأن كل تراث القدس وارثها يستوطنان تلك العيون الواسعة وينسابان في حناياها.

والعيون نفسها كانت تمتلئ حنانا وفرحا اذا دخل صديق قديم، او اذا جاءه اتصال من وحيده اكرم او من احدى ابنتيه مهى ومي ناهيك عن الاحفاد الموزعين في جهات الدنيا الاربع، او بشكل خاص حين تحدثه رفيقة عمره الأخت العزيزة ليس ابنة المرحوم سعيد الصباغ احد ابرز الجغرافيين العرب المعاصرين، الذي عرّفت كتبه «وأطالسه» الشهيرة اجيالا عديدة من شباب العرب بجغرافية امتهم والعالم.

وقد مازحته مرة بالقول: في هذا البيت الكريم المفتوح يتلاقى التاريخ والجغرافيا بابهى صورهما، فالتاريخ تحمله انت القادم من جراحات القدس، بكل مخزونها، والجغرافيا تحمل خطوط عرضها وطولها شريكة عمرك الخارجة من بيت اطل من تضاريس الوطن والأمة على الكرة الكونية بأسرها.

أبا أكرم، الدنيا بدونك، بدون شهامتك ومحبتك واصالتك، هي حتما غيرها معك.

رحمك الله يا أبا اكرم.

ارتباط العراقي بفلسطين جزء من هويته

هيفاء زنكنة *

■ خيام للاجئين الفلسطينيين. عشرات الخيام والعدد يتزايد يوميا. يعيش فيها نساء واطفال ورجال، يعانون قسوة البرد شتاء والقيظ صيفا وسوء الخدمات. بلا ماء وكهرباء وانعدام الرعاية الصحية فضلا عن حرمان الاطفال من الدراسة، حرمان ان يروا أبعد من اللحظة. مرميون على الحدود. لايعرفون معنى الاستقرار. ما الذي سيجلبه لهم الغد؟ أي بلد سيقبلهم أي حكومة أي معسكر؟

رمي قذائف الهاون بشكل عشوائي على المساكن. المداهمة ليلا. توقيف الشباب بشكل غير قانوني وتعرضهم للتعذيب وما زال بعضهم في عداد المختفين. نرى الصور المخيفة، الواحدة تلو الاخرى، في طيات تقرير. نقرأ التقرير فيأتي رد فعلنا تلقائيا كاستنشاق الهواء. لسنا بحاجة الى التفكير قبل ان نتلفظ الكلمات الغاضبة. تبا لاسرائيل. تبا للمحتلين الصهاينة. تبا للعنصرية الامريكية وعملائها. لاننا نعتقد بان الفاعل هو واحد لاغير. هو سلطات الاحتلال الاسرائيلي بلا شك.

نواصل القراءة. فجأة نتوقف. نبلع الكلمات الغاضبة لتتحول طعما مرا مثل السم. يستحيل غضبا من نوع آخر لن تغسله مياه الانهار. نختنق تعطشا لتبرير، لتفسير ما، حين ندرك بان اسرائيل وقوات العنصرية الصهيونية ليست هي التي تقترف جرائم القتل والاختطاف والسجن والتعذيب والترحيل بحق الفلسطينيين. بل انها لاتتم في اسرائيل. جرائم الموت والاضطهاد تتم في العراق الجديد المنعوت بالديمقراطية. عراق الانتخابات والدستور وحماية حقوق الانسان. كلا، اسرائيل ليست مسؤولة بشكل مباشر على الاقل. الحكومة العراقية ابنة الديمقراطية الامريكية هي المسؤولة.

يشير التقرير المعني الصادر عن بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق (يونامي) الذي يغطي موضوع حقوق الانسان للفترة من 1 كانون الثاني (يناير) 28 شباط (فبراير) هذا العام، بان البعثة قد استلمت تقارير مثيرة للقلق بشأن أوضاع الفلسطينيين المقيمين في العراق «والذين يُعدّون ضحية لانتهاكات حقوق الانسان بسبب علاقتهم المزعومة مع الجماعات المسلحة... وفي أعقاب تفجير مرقد سامراء في 22 شباط (فبراير) اعتدت الميليشيات على أحياء البلديات في بغداد بقذائف الهاون بصورة عشوائية في عدة مناسبات... ومنذ ذلك الحين، وقعت اعتداءات أخرى، حيث أشارت التقارير الى مقتل عشرة فلسطينيين وتوقيف آخرين بشكل غير قانوني وتعرضهم للتعذيب وما زال بعضهم في عداد المختفين».

كما أصدرت منظمة العفو الدولية عدة بيانات حول نفس الموضوع. فبتاريخ 27 اذار اصدرت المنظمة بيانا اعلنت فيه عن قلقها على سلامة الفلسطينيين بعد ان تزايد عدد القتلى والمختفين. اذ قتل 12 فلسطينيا في بغداد في الاسابيع الثلاثة الاولى من شهر آذار (مارس) 2006. واختفى عدد غير معروف. كما اشارت الى مأساة 88 لاجئا فلسطينيا بينهم 42 طفلا على الحدود العراقية الاردنية. وجاء في التقرير بان سهيلة عبد جعفر، وزيرة الهجرة والمهجرين، في حكومة الجعفري، كانت قد صرحت في عام 2005 بان على اللاجئين الفلسطينيين مغادرة العراق ودعت إلى ترحيلهم إلى غزة بذريعة أن قوات الاحتلال انسحبت منها.

مما يعني عمليا اجبار 34 ألف لاجئ فلسطيني على مغادرة العراق بينما توجه الوزيرة نداءاتها المتكررة الى البلدان الاوروبية والمجاورة الا تجبر اللاجئين العراقيين على العودة على الرغم من تصريحات حكومتها اليومية بتحرير العراق. ويذكرنا تصريح الوزيرة بتصريح وزير حقوق الانسان السابق عندما سئل عن رأيه في تعذيب المحتل الامريكي لسجناء ابو غريب فأجاب بان السجناء عذبوا أكثر في عهد النظام السابق!

ان غصة القلب التي تثقل انفاسنا ونحن نقرأ هذه التقارير ونسمع التصريحات المستهينة بكرامة الانسان عراقيا كان ام فلسطينيا، تجعلنا نتساءل: ما الذي سيبقى لنا اذا ما استمر طغاة الاحتلال في الاقامة بين ظهرانينا وعلى ارضنا مدة اطول؟ هل من ضمان باننا لن ننتهي، جميعا، كلاجئين في خيام تتبرع بها المنظمات الانسانية على الحدود؟ ألن يتحول كل من يناهض الاحتلال وبأي شكل كان، بغض النظر عن دينه وعرقه الى لاجئ حفاظا على الحياة المهددة من قبل الاحتلال وعملائه؟ خاصة وان مستخدمي الاحتلال يعلكون نصوص القوانين التي تلائمهم والا كيف يتجرأ وزير على توجيه دعوة تتعارض مع القوانين الدولية والحصانة التي يتمتع بها الفلسطينيون في قوانين منظمة الهجرة الدولية، وموقف العراق المعلن في دعمه للشعب الفلسطيني ورعايته آلاف اللاجئين الفلسطينيين على أرضه منذ نكبة العام 1948؟

لقد تربينا في عراق علمنا ان فلسطين جزء لا يتجزأ من تاريخنا وهويتنا. فلسطين الرمز لظلم العصر وعدوانه ولا عدالته. فلسطين الشهادة. ارض الانتفاضة. سياسة المحتل بعنجهيته وغطرسته وعدوانيته نعيشها مع اهلنا في فلسطين. تهديم البيوت وقصف المدن واقتلاع اشجار الزيتون. ما الذي يريده المحتل؟ اقتلاع الحياة من جذورها وانهاء المقاومة. هل نحن بحاجة الى ما هو أكثر من الدفاع عن حق الحياة ليجمعنا؟ ألم ننضم عبر عقود المقاومة الى مختلف المنظمات الفلسطينية؟ ألم يكفنا فخرا اننا انتمينا، مهما كان ديننا او علمانيتنا او عرقنا، الى المقاومة؟ ولم نكن بحاجة الى تعريف المقاومة لان المقاومة، مقاومتنا جميعا، كانت فلسطينية. وماتزال كذلك.

انضم الكاتب والشاعر والصحافي والطبيب والصيدلي والمهندس والسينمائي والفنان. وكل من جعل من تحقيق العدالة الانسانية محطة وانهاء الاحتلال طريقا. لم يخطر على بالنا ولو للحظة واحدة بان العدالة ملك لنظام عربي او المقاومة احتكار لرئيس دولة. لم يكن احدنا ارهابيا او تكفيريا او زرقاويا او صداميا. كنا وما نزال نقاوم من اجل انهاء الاحتلال وتحقيق العدالة. قبلنا بسنوات عديدة كتبت الشاعرة ام نزار ثم ابنتها الشاعرة نازك الملائكة عن فلسطيننا. فهل كانتا ارهابيتين؟ معهما كتب الجواهري وفي سنوات تالية سعدي يوسف ومظفر النواب، فهل كانوا صداميين؟ انتج قاسم حول فيلما سينمائيا، فهل كان تكفيريا؟ وماذا عن شهدائنا في عام 1948؟ ساستعير هنا كلمات قرأتها على موقع شبكة فلسطين للحوار. تحت عنوان شهداء العراق في فلسطين كتبها بلال نبيل: «قبل 58 عاما حارب العراقيون من اجل فلسطين. وسقط منهم العديد على تراب الوطن. عرفناهم كعراقيين ولم نعرفهم كسنة وشيعة وتركمان وكرد ومسيحيين كما فعلت قوى الاجرام الامريكية. فمن اجل هذه العينة من شهداء العراق، ومن اجل العراقيين الابطال الذين اوقفوا الزحف الصهيوني نحو دمشق اثناء حرب 1973: فلنصل من اجل توحيد هذا الشعب». وتلي هذه الكلمات قائمة باسماء الشهداء العراقيين المدفونين في ارجاء فلسطين. شهداء ينتمون الى كل المدن العراقية من كركوك والسليمانية ودهوك الى بغداد والموصل والبصرة.

السؤال الاساسي بسيط. هل يقلل دفاع الحاكم الغاشم عن قضية ما او تبنيه لها من القيمة الاخلاقية للقضية؟ بهذا المعنى هل يتوجب علينا منع المطالبة بتبني حقوق الانسان لان سلطات الاحتلال تتشدق بها وهي تمارس ضدنا كعراقيين وفلسطينيين، كل انواع الانتهاكات والجرائم وبضمنها التصفية البشرية الجماعية؟ هل نعادي حقوق الانسان لانها ارتبطت بقوات الاحتلال وهي صاحبة الحق الوحيد فيها؟ ام نتعامل مع حقوق الانسان باعتبارها جزءا من منظومة مفاهيم ومبادئ وقيم اخلاقية كانت موجودة قبل الاحتلال وستبقى بعد طرده لانها ملك للشعوب التي ناضلت طويلا من اجل ارسائها؟ ان عدالة القضية الفلسطينية وارتباط الفرد العراقي بها جزء اساسي من هويته ومنظومة قيمه الاخلاقية والمبدئية. ولاينتقص من قيمتها كونها قد تم تبنيها من قبل انظمة عربية فاسدة او حكام مستبدين. ان محاولة اقناعنا بان اعتراف بعض الانظمة العربية الفاسدة مبرر لشرعنة العلاقة مع اسرائيل مهزلة تذكرني بمثل بذيء لا امتلك الجرأة على كتابته. ان مفهومي العدالة ومقاومة الاحتلال رافدان حملهما الجزائري والفيتنامي سنوات طويلة ويحملهما الفلسطيني والعراقي معا بمناصرة كل من يناهض الظلم والاحتلال بضمنهم البريطاني والامريكي. انها ذات المفاهيم التي دفعت الاسرائيليين الى قتل الناشط البريطاني توم هارندل، وداعية السلام الامريكية الشابة راشيل كوري والمصور البريطاني جيمس ميللر. انها، قبل اي شيء آخر، مفاهيمنا التي ندافع عنها مهما وصفها ارهاب الاحتلال الفكري والثقافي بالتكفيرية والزرقاوية والصدامية والقومجية العربية.

* كاتبة من العراق

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741ـ0208 (6 خطوط)ـ
فاكس: 8902 741ـ0208 أو 7637 748ـ0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 420 57364 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) **Fax:** 0208-741 8902 / 748 7637
email: ***alquds@alquds.co.uk*** * *Internet:* ***www.alquds.co.uk***
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 **Fax:** 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364